كتاب

أطلس تاريخ الإسلام

تأليف

دكتور حسين مؤنس

أطلس تاريخ الإسلام

هذا الكتاب الكبير العمدة ألفه الدكتور حسين مؤنس ويتكون الكتاب بداية من عشرين فصلا. والكتاب يقع فى ٥٣٠ صفحة حجم ٣٧ X ٢٧سم الفصل الأول عبارة عن: (مدخل فى علم الخرائط عند المسلمين).

والمؤلف الدكتور حسين مؤنس أستاذ تاريخ إسلامى ولكنه يرى أن البشرية لها ثلاثة أبعاد: المكان – الزمان – الإنسان.

ولكنه حين كتب هذا الأطلس الجغرافى التاريخى كان يؤمن بأن (المؤرخ لايتمكن من فنه إلا إذا كان له علم متين بالجغرافية، ولايصلح الجغرافى إلا إذا كانت لديه قاعدة سليمة من العلم بالتاريخ، لأن الجغرافية هى علم المكان والتاريخ هو علم الزمان، والزمان والمكان هما بعدا الوجود البشرى كله، والبعد الثالث هو الإنسان نفسه وهو موضوع التاريخ والجغرافية جميعا...)

وحين نعلم من هذا الفصل أن العرب لم يؤثر عنهم التفكير فى رسم خرائط تاريخية قبل الإسلام، ندرك النقلة التى حدثت بعد الإسلام، وبفضله، فهو الذى حث على العلم وطلبه والسعى إليه فى أى موطن حتى ولو كان ذلك الموطن لم يدخله الإسلام فحين وجه الرسول المسلمين إلى طلب العلم ولو فى الصين لم يكن الإسلام قد بلغ الصين.. أى أن أهل الصين فى زمن الرسول لم يكونوا مسلمين ولكن العلم هو العلم.

والإسلام هو الذى دعا إلى المشى فى مناكب الأرض.

وليس غريبا أن يبرعوا بفضل الإسلام فى علم الخرائط التى تعتمد على الرحلة والتحقيق والمشاهدة الشخصية وهذا النوع الذى يسمى أصحابه (مدرسة الجغرافية الوصفية) . وهذه كما يقول المؤلف هى (أصح الخرائط العربية وأعظمها قيمة من الناحية العلمية والعملية) وليس غريبا أيضا أن تكون خريطة «الإدريسى» ، (أول خريطة كاملة للأرض عملها إنسان) .

وقد كان الجغرافيون القدماء يكتبوب الأرقام فى خرائطهم ونصوصهم بالحروف ثم تطورت أشكال الأرقام على أيدى العرب وقد نقلها أهل الغرب عنهم وهى التى تعرف عندنا بالأرقام الأفرنجية وهى أرقام عربية من صنعنا.. بينما الأرقام السائدة فى العالم العربى إذا استثنينا المغرب إنما هى أرقام هندية .

ويتحدث الفصل الثانى عن (مراحل انتشار الإسلام فى العالم حتى اليوم) . تحدث المؤلف فى هذا الفصل عن موجات التوسع التى شملت فارس والروم والمشرق والمغرب ثم الهند وإفريقية المدارية والاستوائية ولكننى أقف فى هذا الفصل عند (طبيعة التوسع الإسلامى) .

إن فتوحات الإسلام ليست الأرض ولكنها (فتوح) فى العقل والنفس (فتوح رأسية فى العمق لاتقل أهمية عن الفتوح الأفقية فى الاتساع) ومن هنا صعوبة تصوير هذه الفتوح الرأسية الحضارية الهامة على الخرائط ولهذا اكتفى المؤلف على بيانها فى النص.

هذه الفتوح فى الأعماق والآفاق أو (هذه الحركة المتصلة ترجع أساسا إلى أن الإسلام بطبعه قوة حضارية مجاهدة) .

وتحدث المؤلف عن (القوى الغربية وتقدم الإسلام) ومن الغريب أنه قصرها على روسيا حيث يقول صادقا (إن عملية البناء الرأسى فى العمق تسير بقوة ونشاط فى داخل العالم الإسلامى وخارجه، وتأخذ صورا وأشكالا ندركها ونفهمها أحيانا، ولاندركها فى أحيان أخرى، فى داخل العالم الإسلامى وخارجه، ولكننا نحس بها فى كل حين، وإذا كان المسلمون لايدركون حقائقها وأبعادها أحيانا فإن القوى غير الإسلامية التى تحرص على سيادة ماتستطيع سيادته من هذا الكوكب تحس بقوة دفع الإسلام وحيويته إحساسا دائما، وأكبر دليل على ذلك، هذا السيل المتدفق من الكتب والدراسات الإسلامية التى لايتوقف صدورها فى بلاد الغرب وحرص الروس الشديد على وقف التقدم الإسلامى

بمحاربته فى البلاد الإسلامية التى استولوا عليها وحكموها كمستعمرات قبل ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ ثم سموها جمهوريات سوفيتية اشتراكية بعد تلك الثورة، ثم هجومهم العدوانى على أفغانستان فى ١٩٧٦م وهو هجوم لايزال مستمرا حتى سنة ١٩٨٧، وهو يمثل الناحية العسكرية من حرص الروس على التدخل فى شئون الإسلام، ووقف تحركه، كما رأينا فى تشجيعهم السريع لقيام دولة إسرائيل فى قلب العالم الإسلامى، ثم اجتهادهم الدائم بالتدخل السياسى فى شئون الشرق الأوسط وهو قلب عالم الإسلام).

أرى هذا القول يصدق على أمريكا وأوربا كما يصدق على روسيا.. إن روسيا وأمريكا يختلفان فى كل شىء ولكنهما يتفقان على حرب الإسلام. إن وعد بلفور ربيب انجلترا، وأمريكا اعترفت بإسرائيل بعد خمس دقائق من إعلانها هى صاحبة الفيتو التى تشهره فى وجوهنا دفاعا عن عدوان إسرائيل...

لن ننسى مسلمين ما فعلته روسيا وأمريكا والغرب جميعا.

يقول لورنس براون (الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قدرته على التوسع والإخضاع وفى حيويته... إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى).

وتقول مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية : (إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى. ولهذا الخوف أسباب منها: إن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائما فى ازدياد واتساع. ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب، بل إن من أركانه الجهاد. ولم يتفق قط أن شعبا دخل فى الإسلام ثم ارتد).

ثم الحروب الصليبية وجوهر المسيحية برىء منها فإن الإسلام مكمل للمسيحية معترف بها وفيه تحية **للمتواضعين** من أهلها ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون.

كم ناصب الروس والغرب الإسلام العداء مما غطاه الأستاذ العقاد فى كتابين (مايقال عن الإسلام) وكتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه).

وقبله الشيخ محمد عبده الذى تكبد الرد على مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت....

إن العالم الإسلامى حتى فى ضعفه يخيف الأقوياء روسيا وأمريكا معا إنهم يحفظون جيدا أن الإسلام فى مبدأ أمره حين أزاح امبراطورية الفرس، وأطاح بامبراطورية الروم،

لم يكن أتباعه أو جنوده فى ذلك الوقت، الأعلم أو الأغنى، أو الأكثر عددا وعدة، بل العكس هو الصحيح.

إذاً هى شحنة الإيمان بالإسلام، وقدرته القادرة على التحريك، ولكن متى يكون ذلك؟

تاريخ الإسلام يثبت أنه عندما يعتنق على وجهه الصحيح، تصير الغلبة للمسلمين، وعندما يهبط به المسلمون إلى طقوس مسطحة مجردة من الجوهر يهبطون بدورهم ويتخلفون عن الريادة والقيادة، لسيادة الشكليات دون الأساسيات التى تبنى النفوس وتبنى، ببنائها، الأنظمة.

هذه صفحات لابد من إضافتها فى محاولة مناقشة رأى المؤلف الذى قصره على عدو دون الآخر، وكلهم أعداء للإسلام وأوطانه.

أعود إلى الأطلس.

الفصل الثالث جداول تاريخية مقارنة لأهم أحداث التاريخ الإسلامى، وتعاصر الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى آخر القرن الرابع عشر الهجرى.

جداول لاغنى عنها لدارس تاريخ الإسلام لمعرفة الوضع السياسى فى كل قطر من أقطار الإسلام فى كل وقت من الأوقات وكذلك جداول الدول المتعاصرة أو المتزامنة.

ولم يكتف المؤلف بالجداول التاريخية بل عززها باللوحات التاريخية المقارنة Com-parative Historical Charts على امتداد المساحة الزمنية من بدء التاريخ الهجرى إلى العصر الحديث.

ويدور الفصل الرابع عن العالم قبل الإسلام.

العالم القديم فى عصر البعثة النبوية الشرق الأدنى – الشرق الأوسط – فارس – الهند – الصين – وقبل هذا وقف وقفة طويلة عند أوربا وسطها وشرقها ووقفة خاصة عند إسبانيا..

وهذا الفصل كسائر فصول الكتاب معزز بالخرائط.

ويتعطر الفصل الخامس بالسيرة النبوية والعصر النبوى. ويحكى المؤلف أن المحاولة كانت عسيرة جدا على الرغم من أن العرب ألفوا فى جغرافية الجزيرة كتبا ورسائل

كثيرة، ولكن الصعوبة نجمت عن عدم ثبوت المواقع فى شبه الجزيرة، حتى أن المؤلف حين أراد فى الخريطة رقم ٤٠ أن يصف الطرق الرئيسية بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطرق الجانبية التى كان الرسول يسلكها، اجتهد فى توقيع أسماء المواقع التى درست معتمدا على المعلومات التى لديه عن المسافات.

والخرائط ليست رسما فحسب على أهمية ما يعنيه من توضيح ولكنها تحقيق وتصحيح والمثل: (معركة أحد).

يقول المؤلف: (كنا مثلا نظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقف الرماة بقيادة عبد الله بن جبير على جبل أحد، وتبينا الآن أن ذلك غير صحيح، لأن ارتفاع تل أحد اليوم يصل إلى نحو ١٢٠ مترا، فإذا قدرنا أنه فقد حوالى عشرة أمتار بفعل الرياح وعوامل التعرية خلال القرون الماضية، فهذه مائة وثلاثون متراً، وليس من الممكن أن يرمى رام نبالا ويصيب من مثل هذه المسافة، والمعقول أن يكون الرماة قد وقفوا على تل عينين قليل الارتفاع جنوبى أحد وعلى مسافة قليلة منه، لكى يكون لنبلهم الأثر المطلوب، فإن المشركين كان فيهم مائتا فارس، فى حين لم يزد فرسان المسلمين على العشرة، ومثل هذه القوة من الخيالة كانت كفيلة باجتياح مشاة المسلمين، ولم يكن هناك سبيل لحماية المسلمين منها إلا بالرماة يقفون على تل قليل الارتفاع، فتخيفها خوفا شديدا، ولايرهب الخيل ويوقف حركتها شيء مثل السهام التى تصيبها فى الوجوه والصدور أو تمر سريعا بوجوهها، وهذا هو الذى حدث فى الدور الأول من المعركة عندما ألغى الرماة عمل الفرسان، وأصبحت المعركة معركة مشاة كما حدث فى بدر حيث اجتاح المسلمون أعداءهم، حتى إذا نزل الرماة عن تل عينين أتيحت الفرصة لخيل المشركين فاندفعوا يشتتون صفوف المسلمين، ويقتلون منهم كيف يشاءون، وهنا تدخل المعركة فى دورها الثانى).

والخريطة رقم ٥١ خريطة نادرة لمكة ومناسك الحج كما رسمتها فى الغالب مصلحة المساحة المصرية فى منتصف العشرينات من هذا القرن. كما يضم الأطلس عددا من خرائط ابراهيم باشا رفعت. وليس هذا بالشيء القليل فإن كتابه (مرآة الحرمين) بجزئيه مصدر هذه الخرائط يعد (من ذخائر المكتبة العربية).

والأطلس بدوره، مرأة، لشجرات الأنساب العربية، والفتوحات الإسلامية، والمغرب والأندلس وإيران والهند ومصر والسودان والشام.

ووقف الأطلس عند الدولة الأموية والعباسية والعثمانية.

ولم يغفل الأطلس، الاقتصاد وطرق المواصلات والحج.

وفى الفصل العشرين وقف وقفة طويلة استغرقت سبعا وعشرين صفحة عند عالم الإسلام فى العصور الحديثة.

وهكذا نرى كتاب أطلس تاريخ الإسلام موسوعة إسلامية.. موسوعة جغرافية تاريخية تلتقى فيها الكلمة والخريطة والتحليل والرأى والتحقيق والتوثيق وحشد المراجع عربية وأجنبية. إنه عطاء علمى جليل القدر، باقى الأثر.